الزّ ُهد.. ثقافة ووعي



الزّ ُهدُ في الدّ ُنيا، مقامٌ شريفٌ من مقامات عباد ا السالكين مسالك الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)، رُوِي عن النبيّ الأكرم محمّد (صلى ا عليه وآله وسلم) أنّه قال: «ما عُبِد ا بشيء أفضل من الزّ ُهد في الدّ ُنيا». وحقيقة الزّ ُهد هي الانصراف عن الشيء إلى ما هو خيرٌ منه، ولابدّ أن يكون الانصراف والرغبةُ عن الشيء المحبّ َبِ حتى تُسمّى الرغبة عن الشيء زهداً، فالزاهد الصادق دائم الأُنس با تعالى، وتغلب عليه الطاعة، بالإضافة إلى أنّ العبد الزاهد يستوي عنده ذامّ ُه ومادِحهُ. والزاهد الحقّ لا يفرح بموجود، ولا يحزَن على مفقود، قال مولانا أميرُ المؤمنين (عليه السلام): «الزّ ُهدُ كلّه بين كلمتين من القرآن: قال ا سبحانه، لكَيْلا تأْسَوْا على ما فاتكُم، ولا تَفرحوا بما آتاكم، ومَن لم يأْسَ على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزّ ُهدَ بطرفَيه». وقال (عليه السلام): «طوبى للراغبين في الآخرة الزاهدين في الدّ ُنيا، أُولئك قوم اتّخذوا مساجد ا بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طهوراً، والقرآن شعاراً، والدّ ُعاء دثاراً، ثمّ قرضوا من الدّ ُنيا تقريضاً على منهاج عيسى بن مريم (عليه السلام)».

إنّ الزّ ُهد من القيم الإسلامية والخلق الإنسانية الرفيعة التي تبرز أصالة الإنسان في هذه الحياة، وتدلّ على مدى تجذّر الإيمان والأخلاق في نفسه وقلبه وعقله، ولهذا الزّ ُهد ركائز يتقوم بها ويتميّز، فالزّ ُهد يقوم على قِصر الأمل، فلا ينصت الإنسان إلى صوت نفسه التي تزيّن له الحياة، وتغريه بالأماني المعسولة، وتمنّيه بطول العمر وكأنّه إنسان خالد في الدّ ُنيا. كما يقوم الزّ ُهد على شكر النّ ِعم، بأن يطيع الإنسان ربّه بالعمل لا بالقول فحسب، وأن يعيش الحمد والشّ ُكر ، فلا يقنط ويأس في الضرّاء، ولا يبطر في السرّاء، بل يتذكّر ا باستمرار، وأنّه هو المنعم والرّ َازق، ووحده يستحقّ الحمد والدّ ُعاء والشّ ُكر. كما يقوم الزّ ُهد على التورّع عن محارم ا تعالى، فيكفّ المرء نفسه عمّا حرم ا، ويقف عند الشّ ُبهات، ويعيش الورع في نفسه في كلّ الظروف والأحوال.

إنّ ا تعالى لم يدع للإنسان من عذرٍ يتعلّل به، فقد منحه نور العقل والقدرة والإرادة، وأوضح له سبيل الهداية من الكُتُب المنزلة ومن بعث الرّ ُسل، وكلّ ذلك كان بمثابة الحجّة الكاملة على مَن تسوّل له نفسه أن يتخطّى حدود ا ويعتدي على عباده وعلى الحياة. يقول أمير المؤمنين عليّ (عليه

السلام): «أيّها الناس، الزهادة قِصَر الأمل، والشّكر عند النّعم، والتورّع عن محارم ا، فإن عَزَب ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النّعم شكركم، فقد أعذر ا إليكم بحجج مسفرة ظاهرة، وكُتب بارزة العذر واضحة». نتعلّم من كلام الإمام (عليه السلام)، كي نربي قيمة الزّهد في نفوسنا ونفوس أبنائنا، بأن نطيع ا بالعمل الصالح النافع، ولا نتعدّى حدوده، وأن نعيش الشّكر في كلّ الأحوال، وأن نتورّع عمّا حرّم ا، وأن نقبل على ما دعانا إليه من كلم طيّب وعمل صالح يرفعه.

ومن جميل ما سمعنا عن الزّهد، قال الإمام عليّ (عليه السلام): «رَحِمَ ا امرأً قصّر الأمل، وبادر الأجل، واغتنم المهل، وتزوّد من العمل». وقال سلمان المحمّدي (رضي ا عنه): «ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني: مؤمّل الدّنيا والموت يطلبه، وغافل لا يغفل عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أمسخط ربّه أو مرضيه». ودخل رجل على أبي ذر الغفاري (رضي ا عنه)، فجعل يُقلّب بصره في بيته، فقال: «يا أبا ذر! أين متاعكم؟ فقال أبو ذر: إنّ لنا بيتاً نوجّه إليه صالح متاعنا، فقال الرجل: إنّه لابدّ لك من متاع ما دمت هاهنا، فقال أبو ذر: إنّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه»، فأبو ذر غريب في الدّنيا يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده، وهو من الجنّة، وإلى الجنّة:

كم منزل للمرء يألفه الفتد***وحنينه أبداً لأوّل منزل.